المقتبس

الجزء السادس من المجلد الثاني

جمادى الثانية سنة ١٣٢٥ الموافق يوليو (تموز) سنة ١٩٠٧

الهجرة الى مصر

اذا كان اصلي من تراب فكلها بلادي وكل العالمين اقاربي

دحا الله الارض ليعيش عليها البشر ويتناسلوا فيها فيعمروها ويحيوا مواتها ويسيطروا على المخلوقات كلها فالارض هي المنزل العام يجلس اهله في اي ناحية منهُ احبوها وراقتهم وينتقلون في بقاعها واصقاعها وهادها ونجادها وسهلها وحزنها وبحرها وبرها على حسب ما تقضي احوال الصحة وطبائع الاجسام وخواص النفوس .

فقد هاجر الفينيقيون قديماً واقاموا قرطجنة وعمروها وغيرها من شواطىء البحر الرومي وهاجر القوط من جرمانيا الى جنوبي اوربا وداهموا المملكة الرومانية وهاجر الروم من بلادهم الى شواطىء البحر المتوسط وجزره وشواطىء البحر الاسود وبلاده وعمروها . وكثير من الامم امثالهم غادروا مساقط رؤوسهم واتخذوا لهم بلاداً ثانية استعمروها .

وهاجرت في العهد الحديث امم كثيرة واهمُّ هجرة وقعت هجرة الاوربيين الى اميركا عمروها بجنسهم الابيض بعد ان كانت خربة بالجنس الاسود . وكذلك هجرة الهولانديين الى جنوبي افريقية وهجرة الروس الى سيبيريا وهجرة القاقاسيين والجراكسة الى البلاد العثمانية وهجرة الاسرائيليين من بلاد روسيا وهجرة المسلمين الروسيين الى اميركا وغيرهم .

وللعرب حظ وافر من الهجرة والتنقل في الجاهلية والاسلام بل ان الهجرة من طبيعة جزيرتهم يعمدون اليها طلباً للكلأ والمراعي او للاتجار بنتائج مواشيهم وحاصلاتها . واول هجرة في الاسلام كانت هجرة عشرة من الصحابة واربع نسوة وقيل اكثر امرهم الرسول

بالهجرة الى الحبشة لما رأى ما يصيبهم من البلاء قائلاً لو خرجتم الى ارض الحبشة فان فيها ملكاً لا يظلم احد عنده حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما انتم فيه فخرجوا ثم عادوا بعد سنين . وهكذا هاجرت العرب الى قارص رمصر والشام وافريقية والاندلس والسند وكشغر لما ذكرت . ولولا اقدامهم على الهجرة ما رأينا الاسلام منتشراً في قلب آسيا وافريقية .

ولا تزال الى اليوم نشهد اثراً من آثار حب العرب للهجرة وقد زادها اليوم قرب المواصلات وسهولة السفر . نرى اهل حضرموت في جنوبي الجزيرة يهاجرون الى حيدر آباد الدكن الهندية فيكون معظم جيش البلاد منهم ونراهم يهاجرون الى جاوة فيكثر فيها سوادهم وينتشي بعض افرادهم . ونرى النجديين يهاجرون الى الهند في التجارة ثم يستوطنونها ويصبحون فيها اصحاب كلمة ونفوذ . ونشهد السوريين يهاجرون الى اميركا وافريقية فيرتاشون ويتأثلون .

وانهيال السوري على هذا القطر خاصة قديم جداً يصعب تعيين زمنه لاتصاله ببلاد الشام براً وبحراً ولم تكن القوافل في الاسلام تنقطع في البر كما ان المراكب لم تكن تنقطع عن السفر في البحر ولم تبرح بلاد الشام مصيف مصر واحداها مكملة لعمران جارتها . وقد وصف ابن فضل الله العمري في التعريف بالمصطلح الشريف طريق القوافل بين القطرين كما عقد القلقشندي في صبح الاعشى فصلاً في مراكب الشحن الواصل من البلاد الشامية الى الملوك بالديار المصرية . ومصر ما برحت كما وصفها ابن خلدون في القرن الثامن (بستان العالم ومحشر الامم ومدرج الذر من البشر) .

نعم هي محشر الامم ولا سيما الامم المجاورة لها من البر او المناوحة لها من سيف البحر . وذلك لان عمرانها طبيعي مستجر في معظم ادوارها فلا عجب اذا كانت مهاجر الامم من عرب وعجم قبل ان تكون نقطة الاتصال بين قارات اوربا وافريقية وآسيا بفتح ترعة السويس فما بالك بعد ان تم لها ذلك .

فمصر والحالة هذه مقصودة من اقطار الارض اكثر مما يقصد اهلها سائر الاقطار والامة التي تكثر في الغالب خيرات بلادها لا يهون عليها مغادرتها . وطلب الحاجيات هو الباعث الاقوى على المهاجرة فاذا كفيها المرء يصاب بالوناء وضعف العزائم .

وما فتيء السوريون والروم والترك والمغاربة مذ كانت حكوماتهم تتغلب على مصر ينزلون بلاد النيل . فالروم حكموها زمناً طويلاً وكذلك الترك والعرب والجراكسة فكان من هذه العناصر ان نزلتها بكثرة واصبح اكثرهم فيها عمالاً وحكاماً وقضاة ورؤساء جند وعلماء وارباب صنائع وتجارة ولم تكثر هجرة الاوربيين اليها الا عقيب الاحتلال الفرنسوي عند

ما بدأ الفرنسيس والطليان والمجر وغيرهم من امم الغرب يهبطون اليها رقد كثر سوادهم على عهد الخديوي اسمعيل لانه فتح امامهم طرق الهجرة واحسن معاملتهم ووفر لهم المغانم وطرق الكسب .

ولما قبض رجال الاحتلال من الانكليز على ازمة الاعمال اخذ الناس يفدون على مصر من كل فج عميق حتى انك تجد فيها الآن من جميع الشعوب واللغات اناساً اسسوا فيها الاعمال التجارية والزراعية والمالية والعلمية وكثير منهم اغتنوا من خيراتها بفضل كدهم . وقد قدرت ثروة السوريين فيها بخمسين مليون جنيه اي بعشر ثروة القطر وهكذا سائر الامم ولا سيما الروم والطليان والفرنسيس فان فيها من هذه الاجناس ألوفاً اغتنوا من خيراتها واتخذوها دار هجرتهم ووطناً ثانياً لهم . وحال مصر اليوم مع المهاجرين اليها يختلف عن حالها مع امثالهم في القرن الماضي لان ثقة الأمم تزداد بها الحين بعد الآخر ولان الاساس الذي قامت عليه حضارتها اليوم اساس مالي زراعي . خصوصاً وقد ظهرت الآن نتائج ما تعب القابضون على ازمة سياستها سنين في تأسيسه واشتهر ذلك عند الخاص والعام في الاقطار النائية بما يتصل بهم من اخبارها واخبار من يغتنون من المهاجرين اليها ممن توفرت لديهم رؤوس اموال او كانوا من ارباب العقل والعمل فكانت مصر ميداناً لظهور آثارها . وربما لا يذكر الناس الا من نجحوا وقلما يذكرون من اخفقوا . عادة في البشر ولعلها من موجبات اقدامهم على الكسب والكدح في هذه الدار .

ولقد ساعد على كثرة الهجرة اليها حال بعض البلاد المجاورة لها من حيث اجتماعها ومادتها . فترى سكان جنوبي ايطاليا القاحلة يهاجرون اليها اكثر من القاطنين في الشمال منها لان شمالي ايطاليا مخصب واهلها مكتفون بما تجود به عليهم ارضهم وسماؤهم . وكذلك تكثر اليها هجرة سكان جزائر البحر الرومي ولا سيما بلاد اليونان الجدبة واهل سواحل الشام وجبالها .

هذه مصر من حيث هي مهاجر الامم فهي دولية كما يقول الساسة او مشتركة بين اجناس واديان شتى . والتاريخ يشهد انها كانت رحبة الصدر بالوافدين عليها في كل العصور للين عريكة اهلها ولم يحدث هذا التمييز بين سكانها الا عندما اراد مهاجرو الافرنجة ان يستطيلوا على اهلها فاحدثوا لهم ما يقال له « الامتيازات الاجنبية » التي تخولهم من الحقوق ما ليس للوطني مثله ثم كثر توارد الاخلاط عليها ولم يكن الوافدون اليها على غرار واحد بل كان منهم المتورون العالمون وهم افراد . ومنهم المتعلمون المهذبون وهم اكثر . ومنهم العامة الاميون وهم السواد الاعظم . ومعظمهم طلاب رزق وسوقة نازعوا ابن البلاد وربما غلبوه لان من جاء في طلب غرض يحتال للوصول اليه . والغريب في الغالب يكون اجرأ وانشط من الاصيل لان الغربة في ذاتها امارة من امارات النشاط

وطول مقام المرء في الحي مخلق لديباجتيه فاغترب تتجدد

والامثلة كثيرة في هذا الباب من القديم والحديث فليس للوافد ما للباعد من الخمول والاتكال ويكفي ان في لندرا لهذا العهد وهي مهد الصناعات والارتقاء زهاء مائتي الف رجل من رجال الالمان استولوا على اعمالها المالية واستأثروا بها دون ابن البلاد المسلم المنور الذي لا يقل عنه في مواهبه هذا في عاصمة انكلترا فما الحال بمصر واكثر الوافدين اليها هم من الشعوب القوية ومن اهل البلاد الباردة التي تبعث النشاط في قلوب ابنائها واجسامهم وعقولهم فيتخذون عدتهم استعدادهم وكدهم رأس مالهم وعتادهم وذخرهم قصدهم واقتصادهم على حين قد اتت على الوطني ازمان من الفوضى ضعفت بها قواه فاعيا لا يقوى على العمل الا اذا عوده زمناً ولقنه بالتعليم والتربية وقد فاجأته الثروة والحرية مفاجأة بهرته وحيرته ثم ان ابن البلاد في الغالب لا يسف الى المكاسب التي يتنازل اليها الغريب فالاول يذل بأرومته ويعتز بأمته والثاني يذل في سد حاجته ونيل بغيته .

ولما رأت الحكومة المصرية على عهد الوزارة الرياضية ان الوطني يكاد يفنى في الدخيل سنت لائحة صعبت فيها على النازل في مصر اسباب الحصول على حقوق الوطني الا بعد مقامه خمس عشرة سنة واشعاره الحكومة بعزمه على تغيير جنسيته قبل حلول الوقت المعين بخمس سنين فكانت هذه اللائحة غريبة في بابها منعت بعض الطراء على القطر من ولوج باب الاستخدام في دواوين الحكومة وحظرت عليهم تعاطي الاعمال الادارية والسياسية الا انها صرفت وجهتهم الى اتخاذ الاعمال التجارية والزراعية والمالية والعلمية الحرة فافلحوا اكثر مما لو كانوا حصروا وكدهم في الوظائف الاتكالية ولم تحق عليهم كلمة « مصر للمصريين » . ومن هنا نشأ بغض كثير من المصريين للغرباء . كان السبب في ذلك اولاً منافسة هؤلاء لابناء البلاد في احتياز الوظائف وساعد عليها ما ألقنه بعض الجرائد المسموعة الكلمة من عبارات التفرقة وهناك اسباب اخرى قواها ارباب الاهواء والغايات فانتقلت بالتقليد الى العامة ومن نحا منحاهم من الخاصة .

وليست الشكوى التي يشكوها بعض الوطنيين من الوافدين في محلها كلها لان من اغتنى بكده او بطرق غير شريفة فانما غنمه له وغرمه عليه . ولو تسنى لابن البلاد ان يعمل عمله ما تأخر . وياليت خاصة هذه البلاد يسعون الى نزع هذه الاوهام من عقول العامة حتى لا يبغضوا غيرهم بسبب وبلا سبب ويمتزج بعضهم مع بعض لتجيل بودقة مصر ذاك الدخيل الى المعدن الذي تريد ان يكونوا كلهم عليه . فقد ثبت ان هذه البودقة المصرية احالت اليها فيما مضى التركي والجركسي والكردي والحجازي واليماني والعراقي والشامي

والمغربي والسوداني والرومي والفارسي فاتى منهم بعد مقامهم قليلاً في هذا الوادي مصريون يغارون على مصلحة مصر وكثير منهم نفعوها وخدموها بعقولهم وايديهم اكثر من خدمة ابنائها لها تحت اسم مصريين .

وما نيل كانت بقعة من الارض معلومة الحدود والمساحة وقفاً على جنس خاص من البشر لا ينازعها فيه منازع تسرح وتمرح فيها ما شاءت . فالارض ارض الله والناس عباد الله وما احلى بيت البحتري في هذا المعنى

ولا تقل أُمم شتى ولا فرقٌ فالارض من تربة والناس من رجل

وكل من نظر في نهوض الأمم لا يعتم ان يرى بان كل امة ريبت على كره غيرها وتجافت عن الاختلاط به وحسن الانتفاع منه تجني من الخسارة اكثر من الربح . ولقد كانت بغداد من اكبر امثلة التسامح في البلاد الاسلامية رفعت مقام الغريب واحسنت الاستفادة منه فكان يعد بغدادياً كل من دخل بغداد . تساوى في ذلك عجميها وديلميها وعربيها وتركيها ونسطوريها ورروميها ومجوسيها ومسلمها فجمع العدل من شملهم وآخت الراحة بينهم وعد سواء في النسبة اليها من نزلها اليوم ومن نزلها منذ قرن وقد اعان على تكوين هذا المزيج انتفاء الجنسية في الاسلام ورفق المسلمين باهل ذمتهم ولولا ذلك ما قامت تلك الحضارة التي نسبت للمسلمين العرب مع ان اثرهم فيها اقل من اثر غيرهم من الاجناس والاديان . ولكن العمل مشترك وهو منسوب لصاحب البيت كالجنود يشقون في الحرب ثم ينسب النصر لقائدهم .

وانا لا نزال نقول ان من حظ مصر ان تكون البلاد المجاورة لها محتاجة اليها حتى اشبهت فاس في القرون الوسطى لما تواترعيث العرب على القيروان واضطربت قرطبة بانتلاف بني امية بعد موت محمد بن ابي عامر وابنه فرحل من قرطبة ومن القيروان من كان فيها من العلماء والفضلاء من كل طبقة فنزل اكثرهم مدينة فاس قال صاحب المعجب في الثلث الاوّل من المئة السابعة ان فاس اليوم على غاية الحضارة واهلها في غاية الكيس ونهاية الظرف ولغتهم افصح اللغات في ذلك الاقليم وما زلت اسمع المشايخ يدعونها بغداد المغرب وبحق ما قالوا ذلك وقال ان القيروان كانت منذ الفتح الى ان خربها الاعراب دار العلم بالمغرب اليها ينسب اكابر علمائه واليها كانت رحلة اهله في طلب العلم فلما استولى عليها الخراب تفرق اهلها في كل وجه فمنهم من قصد مصر ومنهم من قصد صقلية والاندلس وقصدت منهم طائفة عظيمة اقصى المغرب فنزلوا مدينة فاس .

قصدوا فاس كما قصد الاندلسيون بلاد مراكش والجزائر وتونس وطرابلس ومصر والشام لما تأذن

الله بانقراض دولتهم نعديا من اهلها بل كما رحل الايطالي والالماني والاسباني والانكليزي والفرنسوي الى اميركا لما ضاقت سبل الرزق في وجوههم فصاروا اميركيين وانشأوا يخدمون اميركا اكثر من خدمتهم لبلادهم حتى اذا تناسلوا فيها جاء اولادهم اميركيين صرفاً . وكلما ارتقت الأمم تتطلع الى ادماج غيرها في مجموعها والأمم الافرنجية اليوم اكثر تسمحاً في هذا المعنى من الأمم الشرقية كما يظهر بالاستقراء .

قال ابن حزم الاندلسي : ان جميع المؤرخين من أئمتنا السالفين والباقين دون محاشاة احد بل قد تيقنا اجماعهم على ذلك متفقون على ان ينسبوا الرجل الى مكان هجرته التي استقر بها ولم يرحل عنها رحيل ترك لسكناها الى ان مات فان ذكروا الكوفيين من الصحابة (رض) صدروا بعلي وابن مسعود وحذيفة (رض) وانما سكن علي الكوفة خمسة اعوام واشهراً (قال ابن حجر صوابه اربعة اعوام) وقد بقي ٥٨ عاماً واشهراً بمكة والمدينة شرفها الله تعالى وكذلك ايضاً اكثر اعمار من ذكرنا وان ذكروا البصريين بدأوا بعمران بن حصين وانس ابن مالك وهشام بن عامر وابي بكرة وهؤلاء مواليدهم وعامة زمن اكثرهم واكثر مقامهم بالحجاز وتهامة والطائف وجمهرة اعمارهم خلت هنالك وان ذكروا الشاميين نوهوا بعبادة بن الصامت وابي الدرداء وابي عبيدة بن الجراح ومعاذ ومعاوية والامر في هؤلاء كالامر فيمن قبلهم وكذلك في المصريين عمرو بن العاص وخارجة بن حذافة العدوي وفي المكيين عبدالله بن عباس وعبدالله بن الزبير والحكم في هؤلاء كالحكم فيمن قصصنا فيمن هاجر الينا من سائر البلاد فنحن احق به وهو منا بحكم جميع اولي الامر منا الذين اجماعهم فرض اتباعه وخلافه محرم اقترافه ومن هاجر منا الى غيرنا فلا حظ لنا فيه والمكان الذي اختاره اسعد به